التعليق [c1]:

محاضرة بعنوان

ثورة عبد الله بن الجارود أسبابها ونتائجها

إعداد / أ.م.د. حمّاد فرحان حمادي المحمدي

جامعة الأنبار ـ كلية التربية للبنات ـ قسم التاريخ

أمضى الحجّاج بن يوسف السنوات العشرين من حياته والياً على العراق والمشرق من (رجب ٧٥هـ الى شوال ٩٥هـ / ٦٩٤ – ٧١٤ م) وقضى النصف الاول من هذه المدة تقريباً في إخماد حركات التمرد والثورة التي وجه اليها كل طاقاته واستأثرت بجميع جهوده، وكان لها بالتالي الأثر البالغ على آرائه وأفكاره السياسية. وعلى الرغم من أن كل حركة تمرد قامت ضد الحجّاج كان لها اسباب ودوافع، إلا أنه يلاحظ أن تلك الحركات والثورات جمع بينها عامل رئيسي مُشترك هو بغض أهل العراق للحكم الأموي والعناصر التي أعتمد عليها، وتمثل ذلك في صراع إقليمي بين العراق وبلاد الشام على النفوذ والسلطة والمصالح المادية. كما يلاحظ أنَّ هذا الصراع وإن كانت آثاره ترجع إلى ما قبل الإسلام على ما كان عليه الحال بين المناذرة والغساسنة، إلّا أنَّ تطور الأحداث السياسية في القرن الأول الهجري ساعد بشكل واضح على تعميق المنافرة بين عرب العراق وعرب الشام ، مع أن بعض القبائل التي نزلت هذين الإقليمين كانت تنتمى إلى أصول واحدة.

والراجح أنَّ التطور الاجتماعي و الاقتصادي والسياسي للعناصر العربية في كل من الإقليمين سار في اتجاه معاكس للإقليم الآخر، إذ استقر عرب العراق في الكوفة والبصرة اللتين تحولتا بسرعةٍ من قاعدتين عسكريتين إلى مدينتين يغلب عليها الطابع المدني، الأمر الذي ساعد على اضعاف الروح العسكرية لدى سكانها من العرب ،

في حين ظل عرب الشام يقيمون في أجنادهم الخمسة التي كانت أشبه بالمعسكرات القريبة من المدن، فاحتفظوا بروحهم العسكرية ، فضلاً عن أنَّ المناطق الخصبة المحيطة بالكوفة والبصرة أغرت عرب العراق وأبناءهم بالاستقرار وامتلاك الأراضي الزراعية والجنوح إلى الراحة والدعة ، وهو أمر يختلف عن طبيعة بلاد الشام الأقل خصباً مما جعل المتعاقبة لعرب الشام تتطلع لاحتراف الجندية والقتال كمصدر للعيش.

ولا ننسَ أنَّ عرب العراق قاموا إبان حركة الفتوح الأولى بجهود مشكورة في فتح الأقاليم الشرقية والشمالية من العراق ، وباتوا يشعرون بحقهم في المشاركة في الحكم والسيادة ، أو على الأقل في التفرد بإدارة شؤون اقليمهم ومقاومتهم لأي محاولة خارجية لحكمه ، وزاد الأمر تعقيداً قيام دولة الخلافة الأموية على أكتاف الجند الشاميين ، وتفضيلهم على الجند من عرب العراق والأمصار الأخرى في العطاء وغيره من الامتيازات الخاصة بميادين القتال ، مما أوغر صدور أهل العراق وزاد من حدة معارضتهم لهذا الحكم.

وكان بنو أمية يحملون عرب العراق على مواصلة الفتح في الأقاليم الشرقية التي تميزت بوعورتها وشدة بأس أهلها ، لا سيما الترك منهم ، ويعتبرون الاشتراك في حملات الفتوح شرطاً أساسياً لاستمرار العطاء الذي أصبح أيضاً رمزاً للتقدم والشرف. وهنا نجد أنَّ عرب العراق يحرصون على أخذ العطاء مع عدم إظهار أي رغبة حقيقية في القتال والميل إلى البقاء في أمصارهم يتمتعون بما في أيديهم من خيرات. فالدولة تقدم العطاء وتصرّ على استئناف الفتوح غير مدركة للتحول الاجتماعي الذي طرأ على عرب البصرة والكوفة ، وأهل العراق يريدون العطاء ولا يرغبون في فتح ولا حرب ، وهذا على ما يبدو، هو صلب المشكلة في العلاقات الأموية العراقية.

يضاف إلى ذلك أنَّ الخلافات السياسية التي ظهرت بشكلٍ حادٍ بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان(رضي الله عنه) وتفاقم النزاع بين الخليفة علي (رصي الله عنه) ومعاوية جعلت من العراق مركزاً للمعارضة ضد بني أمية ، وتمثّلت هذه المعارضة في الشيعة والخوارج الذين عملوا على تقويض الحكم الأموي بكافة السبل والوسائل وعمّقوا المشاعر العدائية لذلك الحكم .

وكان أهل العراق منذ أنْ انتقلت عاصمة الخلافة من الكوفة إلى دمشق يتطلعون إلى اليوم الذي يعيدون فيه مركز الدولة إلى بلادهم ويعتبرون عرب الشام مغتصبين للخلافة والحكم وينظرون إلى أنفسهم على أنهم أحق منهم بمراتب الشرف والرياسة . ثم أنَّ أهل العراق كانوا يتمتعون منذ عهد المناذرة بقسطٍ من الحرية والاستقلال أكثر مما كان يتمتع به أهل الشام ، وأنَّ عرب العراق بما كان يفد عليهم باستمرار من أعراب البادية ظلّوا أقلَّ تقبلاً وخضوعاً لقواعد الطاعة والنظام التي حاول الولاة الأُمويون فرضها عليهم دون جدوى . ولعلَّ ذلك راجع إلى أنَّ العراق ظلَّ يضمّ تشكيلات قبلية كبيرة لها وزنها وخطرها في توجيه سياسة ذلك الاقليم ، فهناك قبائل مضرية وأخرى يمنية متنافسة وثالثة تنتمي إلى ربيعة تقف أحياناً على الحياد وتميل أحياناً أخرى إلى هذه أو تلك حسب ما تقتضيه المصلحة ويتطلبه الظرف.

وفضلاً عن ذلك شهد العراق في هذه المدّة إقبالاً ملحوظاً من بعض السكان المحليين لا سيما الموالي من الفرس على الدخول في الإسلام دين العرب الفاتحين أملاً في الحصول على المساواة في الحقوق والواجبات مع العرب المسلمين لا سيما ما يتعلق بالعطاء والاعفاء من الخراج والجزية ، فلمّا لمْ يتحقق أملهم تحوّلوا إلى عناصر تضطرم بالسخط والحقد وغدوا مادة مهيأة لتغذية حركات التمرد والثورة.

وفي هذا الجو السياسي المشحون بعوامل البغض والنقمة شهد العراق كثيراً من المغامرين الذين استغلوا هذه العوامل وقاموا بعدة حركات تمرد وثورة ليس ضدَّ عمال

بني أمية وولاتهم فحسب بل ضدّ الوجود الأموي من أساسه كما فعل المختار بن أبي عبيد الثقفي ، ومطرف بن المغيرة بن شعبة ، وعبدالرحمن بن محمد بن الاشعث الكندي وغيرهم.

وإزاء تطرف حركات المعارضة وتطورها على النحو السابق ، وجد الأُمويون أنفسهم أمام أمرين لا ثالث لهما فأمّا أنْ يسلّموا الأمر إلى أهل العراق الذين سعوا إلى القضاء على الحكم الأموي ، وإمّا أنْ يسلكوا سبيل الحزم والقوة لإخضاعهم فاختاروا السبيل الثاني. وكان الحجّاج بن يوسف رجلهم في العراق الذي عهد إليه بتنفيذ هذه السياسة التي قضى بها على عددٍ من الفتن وحركات التمرد والثورات ، كان من بينها :

ثورة عبدالله بن الجارود

تعدُّ هذه الثورة أول حركة تمرد خطيرة يواجهها الحجّاج منذ قدومه إلى العراق ، وقد وقعت عندما كان الحجّاج يعسكر في عدّة آلاف من أهل البصرة والكوفة في رستقباذ* لمساعدة المهلب بن أبي صفرة في قتال الخوارج وإمداده من هناك بالقوات والذخائر عند الحاجة ، وقاد حركة التمرد هذه عبدالله بن الجارود العبدي ، ويقال له عبدويه زعيم قبيلة عبد القيس التي تنتسب إلى ربيعة ، وكان أبوه الجارود المعروف بإسم بشر بن عمرو بن حنش بن العبدي سيد قومه في الجاهلية ، وقد وفد على الرسول(ﷺ) وأعلن إسلامه وثبت عليه ، حتى اذا استشهد ابان حركة الفتوح الأولى عام ٢٠ هـ انتقلت مراتب الشرف منه إلى ولده عبدالله الذي آلت اليه زعامة عبد القيس بالإضافة إلى كونه واحداً من كبار التابعين في البصرة.

وقد ذكرت أخبار هذه في معظم المصادر، إلّا أنَّ البلاذري يُعدُّ أحسن مَنْ أورد تفاصيلها وأسبابها في كتابه أنساب الأشراف ، ونقل ابن الأثير وابن خلدون هذه

التفاصيل وضمّناها تاريخهما دون تصرف يذكر، في حين اختصرتها المصادر الأخرى إختصاراً شديداً لا يتناسب مع أهميتها.

أمّا دواعي هذا التمرد فيمكن أنْ نرجعها إلى الأسباب الآتية:

أولاً– إرغام الحجّاج أهل البصرة والكوفة على الخروج من ديارهم لمقاتلة الخوارج وتهديده كل من يتخلّف منهم بالقتل ، فخرجوا على كرهٍ منهم خوفاً من العقوبة لا رغبة في القتال ، فضلاً عن موقفهم السلبي من الولاة الامويين وتراجع الروح الحربية لديهم الأمر الذي جعلهم ينتهزون أول فرصة أو مبرر للعودة إلى بلادهم.

ثانياً– تهديد الحجّاج لأهل العراق بالمرابطة في مواقع القتال مدّة غير محدودة حتى يتم القضاء على الخوارج ، وأبلغهم ذلك صراحة في أول خطبة له حين نزل رستقباذ في أواخر شعبان عام ٧٥هـ إذ قال: (يا أهل المصرين ، هذا المكان والله مكانكم ، جمعة بعد جمعة وشهراً بعد شهر وسنة بعد سنة حتى يهلك الله هؤلاء الخوارج المطلّين عليكم). فقال له الناس: (ولِمَ تحبسنا ، أصلح الله الأمير بهذا المكان؟ سِرْ بنا إلى هؤلاء الكلاب فما هم اذا اجتمع أهل المصرين عليهم بشيء). ويتضح من هذا الرد أنَّ أهل البصرة والكوفة لم يتقبلوا نبأ تجميرهم في ميادين القتال بالرضى والارتياح.

ثالثاً– إعلان الحجّاج عن عزمه على إنقاص عطاء كلّ محارب من أهل العراق مائة درهم ، وهي قيمة الزيادة التي زادهم إيّاها مصعب بن الزبير وظلّت سارية المفعول بعد عودة العراق للحكم الأموي ، وكان مصعب يعطي أهل العراق عطاءين في السنة ، إحدهما في الشتاء والآخر في الصيف ، ممّا جعل الاستمرار في هذه السياسة المالية يُنذر باستنزاف أموال الدولة التي كانت تعاني في ذلك الوقت من ضائقة مالية لا سيما في السنوات الأولى من حكم عبدالملك وترجع أسباب هذه

الضائقة إلى كثرة الثورات والفتن وتوقف حركة الفتوح ، ويبدو أنَّ الضائقة المالية التي كان يعاني منها عبدالملك هي التي اضطرته إلى الاقتصاد في الاعطيات والنفقات ، وقد إنعكس هذا الوضع بصورة واضحة في العراق إذ كان فيه عدد كبير من المسجّلين في ديوان العطاء ، وكان الحجّاج قد جعل صرف العطاء للمسجلين من الجند في ديوان العطاء متوقفاً على تلبيتهم لنداء الانخراط الفعلي في صفوف المقاتلين وبلائهم في القتال ، لأن كلاً منهم كما يقول الحجّاج : (أجير للمسلمين ليس له أنْ يأخذ إلّا بقدر ما عمل). كما حدّد الحجّاج عطاء عامة الجند بثلاثمائة درهم سنوياً ، وذلك في أعقاب إنقاصه اعطياتهم مائة درهم وهي الزيادة التي زادهم إياها مصعب بن الزبير ، فضلاً عن ذلك حتّمَ على كل جندي أنْ يجهّز نفسه للقتال بعدّة حربية كاملة ، تضمُّ فرساً ودرعاً وقوساً وسهاماً ، ولعلَّ الحجّاج استهدف من تحديد هذا المبلغ الذي لا يكاد يفي بتوفير الأسلحة والمعداتضمان ولاء الجنود وجعلهم يحسّون دائماً بحاجتهم إلى الدولة وخوض حروبها لنيل حصتهم من الغنائم ، ورفع مستواهم المادي .

وكان الحجّاج يطبق بذلك نصيحة الخليفة عبد الملك حين أوصاه أن يجمر أهل العراق ويتابع عليهم البعوث ويستعين عليهم بالفقر ، لأنَّ الفقر على حدِّ قول الخليفة عبد الملك جُند الله الأكبر ، وكان هذا الخليفة يتمثل بالقول المعروف " أجع كلبك يتبعك" ، وقد كتب الحجّاج بهذه النصيحة إلى قتيبة بن مسلم عندما شكا إليه ترك أهل الشام طاعته بخراسان فقال له :(أنْ أحرمهم أطماعهم وأفقرهم فإن الفقر جُند الله الأعظم الذي يذلّ كلّ جبار عنيد).

وكان الحجّاج قد أشار إلى إنقاص الزيادة في خطبةٍ وجّهها إليهم وقال: (إنَّ الزيادة التي زادكم إيّاها ابن الزبير أنّما هي زيادة مُلحِد منافق فاسد ولسنا نجيزها).

وكانت تلك الخطوة العامل المباشر الذي فجّر ثورة العراقيين ضد الحجّاج ، وقد تصدّى عبدالله بن الجارود للرد على الحجّاج قائلاً: (أيّها الأمير إنها ليست زيادة ابن الزبير أنّما هي زيادة أمير المؤمنين عبدالملك إذ نفذها وأجازها وجرت لنا على يد بشر بن مروان أخيه). فأجابه الحجّاج: (ما أنت والكلام ، لتحسنن حمل رأسك أو لأسلبنّك إيّاه) ، واستنكر ابن الجارود هذا القول من الحجّاج ، وقال له بلهجة لا تخلو من تهديد: (ولِمَ هذا القول ، والله إنّي لك لناصح وأنَّ قولي هذا لقول مَن ورائي).

ويبدو أنَّ الحجّاج بن يوسف فوجئ بهذا الرد من عبدالله بن الجارود ، الذي ينطوي على تهديد مبطّن بإعلان العصيان إذا أقدم على تنفيذ خطته ، فآثر التريث والانتظار حتى يتدبّر الأمر ويتخذ له الترتيبات اللازمة ، وظلَّ على هذه الحال أكثر من ستة شهور لا يذكر إنقاص الزيادة . وخلال هذه المدّة استطاع الحجّاج أنْ يستميل رجلاً معروفاً من قبيلة عبد القيس التي ينتمي إليها ابن الجارود ، وهو مصقلة بن كرب بن رقبة العبدي ويعده للرد على عبدالله بن الجارود إذا قام الأخير برفض اقتراحه ثانية ، فلمّا أعاد الحجّاج القول في إنقاص الزيادة تصدّى له ابن الجارود من جديد وردَّ عليه بمثل ردّه الأول ، وهنا قام مصقلة بن كرب وقال: (ليس للرعية أنْ تردَّ على راعيها ، وقد سمعنا ما قال الأمير فسمعاً وطاعة فيما أحببنا وكرهنا).

وعلى إثر ذلك تأزّمت الأمور بين الجانبين وأدركَ أهلُ العراق أنَّ الحجّاج مُصمّمٌ على إنقاص أُعطياتهم والاستمرار في إجبارهم على الخروج للقتال ، فصمّموا على إعلان التمرد على عاملهم الجديد وإخراجه من العراق والتقدّم بطلب إلى عبدالملك بن مروان ليولّي عليهم غيره وإلّا أعلنوا العصيان على الخليفة نفسه وخلعوه ، ويصف البلاذري تهيؤ العراقيين للثورة على الحجّاج قائلاً: (وأتى الوجوه عبدالله بن الجارود

، فصوبوا قوله ورأيه في ردّه على الحجّاج وإباءه ما أتى به ، وقال له الهذيل بن عمران البرجمي وعبدالله بن حكيم المجاشعي وغيرهما: نحن معك ويدك وأعوانك. إنَّ هذا الرجل غير كافّ أو ينقصنا هذه الزيادة فهلّمَّ نبايعك على إخراجه من العراق ثم نكتب إلى عبدالملك نسأله أنْ يولّي علينا غيره فإنْ أبي خلعه فانه هايب لنا ما دامت الخوارج ... فبايعه الناس وأعطوه المواثيق على الوفاء وأخذ بعضهم على بعض العهود) .

ترامت أنباء هذه الاستعدادات إلى مسامع الحجّاج بن يوسف فبادر إلى العمل على إحباطها وحصر التمرّد في أقلِّ مجموعة من الناس، ففرّق التقسيمات السكانية الخمسة لأهل البصرة والتقسيمات الرباعية لأهل الكوفة بعضها عن بعض ، وجعل بينهم طرقاً ، وعيَّن عليها حرساً ليمنع اختلاط أيّ فريق بالآخر، ووضع في الوقت نفسه حراسة مشددة على بيت المال ، إلّا أنَّ هذه الاحتياطات لم تجدِ نفعاً ، إذْ أكمل العراقيون استعدادهم للتمرد وأعلنوه في ربيع الثاني سنة (٧٦هـ /٦٩٥م) بقيادة عبدالله بن الجارود الذي استولى وأصحابه على خزائن الحجّاج ومخازن سلاحه.

بعث الحجّاج بن يوسف برسول من قِبله إلى ابن الجارود يستدعيه ، فأبى وأغلظ القول في الحجّاج وأصرَّ على مغادرته العراق ، وعند ذلك أبلغ الرسول عبدالله بن الجارود رسالة تهديد شفوية من الحجّاج يقول له فيها: (أتطيبُ نفساً بقتلك وقتل أهل بيتك وعشيرتك؟ والذي نفس الحجّاج بيده لئن لم تأتيني لأدعنَّ قومك عامة وأهل بيتك خاصة كأمّةٍ قد بادت وحديثاً للغابرين) وهنا أساء ابن الجارود إلى مبعوث الحجّاج وأهانه ، ممّا يعني قطع كل أمل في حصر الخلاف بين الجانبين وعدم تحوّله إلى المواجهة المسلحة .

زحف أنصار عبدالله بن الجارود نحو الحجّاج وهم لا يعتزمون القضاء عليه وإنّما هدفوا إلى إرهابه وإرغامه على مغادرة العراق كما كانوا يفعلون مع غيره من

الولاة والعمال السابقين ، وأراد المتمردون أنْ يحصروا خلافهم مع الحجّاج بن يوسف ويتجنبوا ما استطاعوا مخالفة عبدالملك الخليفة الشرعي للمسلمين. واستطاع هؤلاء بسهولة أنْ يجتاحوا معسكر الحجّاج ويصلوا إلى فسطاطه ونسائه ويستولوا على كثير من متاعه ودوابه ، ممّا جعل الحجّاج يواجه وضعاً خطيراً لا يحسد عليه.

ويبدو أنَّ زمام الأمور قد أفلت من عبدالله بن الجارود إذ تجاوزت حملة إرهاب الحجّاج غايتها الأمر الذي جعل عدداً غير قليل من المتمردين يداخله الخوف من مغبة الاستمرار في العصيان ، فبادر أهل اليمن إلى حمل إمرأة الحجّاج هند بنت النعمان بن بشير الأنصاري وفرضوا حمايتهم عليها ، كما جاءت مضر فأخذت إمرأته أمُّ سلمة بنت عبدالرحمن بن سهل بن عمرو القرشي مخافة أنْ تتعرض لسوء على يد السفهاء ، كما يقول البلاذري: (وانضم إلى الحجّاج قوم من أهل البصرة والكوفة ممّن أوجسوا خيفة من محاربة السلطان ومخالفته ، وبذلك تحسّن موقف الحجّاج بعض الشي ، إلّا أنَّ قوّته ظلّتْ دون قوّة المتمردين ، وقد أشار بعض أصحاب ابن الجارود عليه أنْ يعجل قتال الحجّاج قبل أنْ يكثر مناصروه ، ولكنّه أخّرَ ذلك حتى اليوم التالي.

جمع الحجّاج بن يوسف كبار أعوانه ومساعديه واستشارهم فيما يجب عمله لمواجهة هذا التمرد الخطير ، فقال له زياد بن عمرو العتكي صاحب شرطته على البصرة :(أرى أنْ آخذ لك من القوم أماناً وتخرج حتى تلحق بأمير المؤمنين فقد انفضّ جمهور الناس عنك ، ولا أرى لكَ أنْ تقاتل بِمَنْ معك ولا أحبّ أنْ تضيع وتهلكها. أما عثمان بن قطن الحارثي فأشار عليه برأي آخر قائلاً: (لكني أرى ذلك، إنَّ أمير المؤمنين قد أشركك في أمره وخلطك بنفسه[٣٤] واستنصحك وسلّطك وملّكك فسرت إلى ابن الزبير وهو أعظم الناس خطراً فقتلته ، فولّاك الله شرف ذلك وسناه وذخره وأجره ، وولّاك أمير المؤمنين الحجاز ثم رفعك إلى ولاية العراقين ، أفالآن

حين جريت إلى المدى وأصبت الغرض الأقصى وهابتك العرب تخرج على قعود تدادى[٣٥] يوجف بك الى الشام ، والله لئن فعلتها لا نلت من عبدالملك مثل الذي أنت فيه من السلطان أبداً وليتضعن شأنك ولتسقطن عنده ولتهونن على عدوّه ، ولكنّي أرى أنْ نمشي بسيوفنا معك فنضارب هؤلاء القوم حتى نلقى ظفراً أو نموت كراماً ، فقال الحجّاج : قرعتني بما في قلبي قرعاً ، الراي ما رأيت، ويروي أبو اليقظان أنَّ عبدالرحمن بن عبيد بن طارق العبشمي أحّد أعوان الحجّاج أشار عليه بعدم القتال لقلّة عدد أصحابه وعدم توفّر السلاح لديه ، إلّا أنَّ الحجّاج ، وقد استقر رأيه على منازلة المتمردين، قال له: (إنَّ القليل الطيّب خير من الكثير الخبيث وكثيراً ما ينصر الله القليل على الكثير).

أرسل الحجّاج بن يوسف رُسلاً من قِبله إلى رؤساء القبائل العربية المرابطة في المنطقة يطلب منهم أنْ يأتون اليه وينصرونه ، وقد ردَّ عليه عامر بن مسمع من ربيعة وسحيم بن شعيب الحنفي من بني بكر أنْ يأخذا له أماناً من الناس ويلحق بعبد الملك ، أمّا رؤساء تميم فقد أعربوا عن استعدادهم إذا أتاهم ، وهو أمر لم يقبله الحجّاج لِما فيه من الإهانة والعار لأنه أمير العراق .

وقد حدثت في هذه الأثناء تطورات في صالح الحجّاج إذ قَدِمَ عباد بن الحصين سيد قبيلة الحبط التميمية وانضم مع مائة فارس من قومه إلى صفوف الحجّاج الذي سرَّ كثيراً بهذا التحول حتى قال لعباد بن الحصين: لا أُبالي مَنْ تخلّف بعدك ، كما أنَّ قتيبة بن مسلم الباهلي أقبل في ثلاثين من قبيلة أعصر القيسية لنصرة الحجّاج القيسي النسب وقال: والله لا أدع قيسياً يقتل وينهَب ماله وأخذت الناس تتوافد على معسكر الحجّاج ، كما غيّرت ربيعة من موقفها عندما رأت بداية تحوّل الموقف إلى جانب الحجّاج ، وأرسل اليه زعيمها مسمع بن مالك يقول

له: إنْ شئت أتيتك وإنْ شئت أقمت فثبطت الناس عنك ، فطلب منه الحجّاج عدم الحضور والبقاء في منازله يثبط الناس عن الخروج والالتحاق بصفوف أعدائه .

إطمأن الحجّاج بن يوسف إلى قوّته الجديدة بعد أنْ بلغَ عدد الذين عادوا إلى الالتحاق به ستة آلاف شخص ، وخرج لقتال المتمردين الذين يرأسهم عبدالله بن الجارود ، وأخذ الحجّاج يحرّض أصحابه على الاستبسال في القتال ويقول: (لا يهولنّكم ما ترون من كثرة عدد عدوّكم فأنّه ليس بكم والحمد لله قلّة ولا ذِلّة فشدّوا عليهم يتطايروا تطاير طير الأجمة المنفر ، إنّهم أخور من اليراع، وإنْ صدقتموهم الضرب سألوكم الأمان). وقد بدأ القتال سجالاً بين الجانبين وانتهى بمقتل ابن الجارود وهزيمة أصحابه . وهنا أمرَ الحجّاج بألاّ يتبع المنهزمون قائلاً: (الإتباع من سوء الغلبة) ونادى مناديه بأمان الناس إلا الهذيل بن عمران البرجمي وعبدالله بن حكيم المجاشعي الذين سعّرا تلك الفتنة ،على حدِّ قوله ، وقد أمر الحجّاج بقتلهما إذ صلبا مع عبدالله بن الجارود وأرسل رؤوس هؤلاء الثلاثة مع رؤوس سواهما إلى عسكر المهلّب ، حتى تقوى نفوس أصحابه ويأس الخوارج ممّا بلغهم من اضطراب أمر الحجّاج بعد تمرد ابن الجارود عليه. ثم لم يلبث أنْ أمرَ الناس بالعودة إلى أمصارهم وأقبلَ هو عائداً إلى البصرة ، وبعث إلى عبدالملك كتاباً يخبره فيه بانتصاره على المتمردين في رستقباذ ، واستهله بقوله: (أمّا بعد فالحمد لله الذي حفظ أمير المؤمنين في سلطانه وجعل دائرة السوء على من خالفه ، أُخبر أمير المؤمنين أنّي لماّ نزلت منزلي من رستقباذ وثب عليَّ أهل العراق فخالفوني ونابذوني ودُخل فسطاطي وانتُهبتْ أموالي وقالوا: أُخرج من بلادنا إلى مَن بعثك الينا ففارقني البعيد وأسلمني القريب ويئس مني الشفيق ، فشددت عليهم بسيفي ولقيتهم بشيعتي وقلت الموت قبل البراح . فوالله ما رمت العرصة. حتى جعل الله لأمير المؤمنين منهم أنصاراً فضربت مدبرهم وبمطيعهم عاصيهم فقتل الله طاغية القوم عدوّ الله ابن

الجارود وثمانية عشر من رؤوسهم ، وضرب الله وجهوهم فأخذوا شرقاً وغرباً ، ثم أنّي أمنت الناس غائبهم وشاهدهم فتراجعوا واجتمعوا وألحقت الناس بأمصارهم ولله الحمد كثيراً والسلام). فردَّ عبدالملك قائلاً: (أمّا بعد فقد بلغني كتابك وأنت الناصح الجَيْب الأمين الغيب القليل العيب ، فإذا رابك من أهل العراق ريب فاقتل أدناهم يرعب منك أقصاهم والسلام).

ويقال أنّ الحجّاج تمثّل في رستقباذ بعد انتصاره على ابن الجارود بقول الشاعر سويد بن أبي كاهل:

كيفَ يرجون سقاطي بعدما ... جلل الرأس بياض وصلع
ربَّ مَنْ أنضجت غيظاً صدرهُ ... قد تمنّى لي موتاً لم يطع
ويراني كالشجا في حلقه ... عسراً مخرجه ما ينتزع
مزبداً يخطر ما لم يرني ... فإذا أسمعته صوتي انقمع
لم يضرني غير أن يحسدني ... فهو يزقو مثل ما يزقو الضوع
ويحييني اذا لاقيته ... وإذا يخلو له لحمي رتع
قد كفاني الله ما في نفسه ... وإذا ما يكف شيئاً لم يضع

وإذا كان هذا التمرّد قد انتهى بالفشل بسبب تردد أصحاب عبدالله بن الجارود في القضاء على شخص الحجّاج وتأخرهم في منازلته ، ممّا هيأ له الفرصة لجمع قواته ، فأنَّ الحجّاج نفسه يتحمل جانباً من مسؤولية التمرد وذلك عندما لجأ إلى إنقاص عطاء الجند دون أنْ يقدّم مبرراً معقولاً لقبول هذا الإجراء الذي يتعلّق بالكيان الاقتصادي المباشر للأفراد ، ولم يحاول أنْ يشرح لعرب العراق الأهداف الحقيقية لتلك الخطوة التي تطلبتها مصلحة الدولة ، كما يعدهم بإعادة تلك الزيادة لدى الانتهاء من القضاء على الخوارج واستئناف الفتوح فكان طبيعياً والحالة هذه أنْ تواجه خطواته بمقاومة عنيفة ، ورغم فشل تلك المقاومة إلّا أنّها خلّفت نتائج هامة أبرزها:

أولاً– إنهيار الثقة منذ البداية بين عرب العراق والحجّاج ، ممّا جعل العلاقة بينهما تقوم على التربص والحذر، لا سيما بعد أنْ قضى الحجّاج في هذا التمرد على عدد غير قليل من وجوه العراق وشخصياته البارزة.

ثانياً– إزدياد ثقة عبدالملك بالحجّاج ومنحه تفويضاً مطلقاً بمقاومة أيّ تمرد أو ثورة مقبلة في العراق بكلِّ عنف وشدة ، ممّا جعل مهمة الحجّاج طوال السنوات العشر الأولى من حكمه العراق أشبه ما تكون بقائد فريق قوي من رجال الاطفاء لا ينفك عن إخماد نيران الثورات التي كانت تندلع في طول العراق وعرضه.

ثالثاً–إنَّ هذه الثورة أكّدت من جديد أهمية العصبية القبلية في ذلك الوقت ، إذ وقفت قبائل من مضر وربيعة واليمن أوّل الأمر ضد الحجّاج الوالي الأموي الذي ينتمي إلى مضر، وقد أثبتت الوقائع والأحداث تعذّر إستمرار التحالف القبلي المذكور نظراً للعداء التقليدي بينها، فلمّا حان وقت القتال إنضم عدد غير قليل من المضريين إلى الحجّاج ثم لحقت بهم ربيعة عندما تأكّدت أنَّ ميزان القوى رجح إلى جانب الحجّاج.